جزيرة الواق واق

هتفت وهي تشير بيدها نحو ساحة البيت المبللة بمياه الامطار:

ـ فتحي ! شوف .. جاء والدك .

عبر باب الحجرة بدت ثلاث بقرات وحصان تدب الى مهاجمها تحت سقيفة مقابلة يعلوها حطب رطب ، وفي راس كل منها حبل طويل ينسحب خلفه ببطء . ولم يعرها هو انتباها . مسح مخاط انفه بجمع يده وازاح شعره الاسود المنسدل على جبهته . ثم حشر في جيب دشداشته الجانبي حفنة اخرى من التمر الكسب ، سقط بعضه ..غاب في عتمة ارضية الحجرة ، فصالب قدميه اكثر ما يستطيع حتى لامست اصابع يده غطاء التمر المغبر داخل البرميل . اضافت مشيرة الى الخارج :

ـ شوف ! الدنيا ادلهمت مثل وجه العفاريت ..

وكانت الريح فعلا عالية تعبث بسعف النخيل كما يحلو لها فتحرك هاماتها كيم هائج،الا ان زرقة ، ولو كانت كامدة،ظلت تبدو خلل السحب المتجمعة في سماء لها عمق البحر البعيدة ورحابة صدرها وسعتها .ولما اطال فتحي التطلع نحوها لاحت كآبة على وجهه المدور الصغير لا تناسب التماع عينيه الطفلتين . وبدت شفتاه الرفيعتان مزمومتين كانه على وشك البكاء .. لكنه لم يبك . وفي الخارج ذوي النور على وشك الاستسلام الكامل لظلمة الليل ، فواصل ملء جيوبه بحفنات التمر اليابس . ولما لم يرد عليها قالت ايضا :

ـ شوف ! امك هناك سوف تعمي عيونها من البكاء عليك .

والى جانب سقيفة اندواب كانت والدته تقف مائلة الى الخلف امام التنور المتوهج كالصدر عندما يشتعل بنيران الغضب ، تضع حول راسها ورقبتها فوطة بيضاء متسخة وفي ساعدها جوربا عسكريا قديما بانتظار اخراج ارغفة خبز الشعير الباقية .. ولم يعبا بها ايضا . وتناول من الكيس المجاور ثلاثة رؤوس بصل دسها في جيب سترته المثقوب . فوضعت يدها على كتفه وقالت باشفاق .

ـ تقول امي ، ان المركب ملعون ، مسحور ،انه هناك منذ ولد المرحوم جدنا . وكل من كان يحاول اصلاحه او استعماله تخرج الافاعي والجان له من بين الشقوق فتلتف عليه وتاخذه الى قاع النهر لتطعمه هناك خراء الضفادع كل يوم حتى يصبح اخضر كله ثم يخرجونه بعد اعوام شجرة على الجرف ..

مسح مخاط انفه بجمع يده مرة اخرى وتطلع اليها بوجه مكفهر ونظرة لائمة حادة شديدة . قال :

ـ المركب صلحه الغريب ، وشعل الحرمل فيه اليوم فدامي وطرد منه كل الجان ، وقال المركب جاهز يمكنه الذهاب حتى بلاد الواق واق.

ـ الغريب كذاب ، لا تصدق به ، تراه يسرقك ويبيعك للكاولية او لصاحب مطعم جان يسوي من لحمك كباب .

ازاحها بيده عنه . ورفع « بخانة »الخبز ، تناول رغيفين باردين رطبين من طبق الخيش ، طبقهما وحشرهما في جيب السترة الاخر. الحت عليه :

ـ تقول امي ان المركب لا يصلح حتى كحطب وان هذا الغريب ليس غير حرامي من اصل الجن ، والا فكيف نام الليالي مع الافاعي في المركب وتركته يفعل هناك ما يفعل ؟ رد عليها هذه المرة منشغلا بربط قيطان حذائه المترب :

ـ هو صديقي ، يعرف كل شيء . سالته لماذا لا يخلص ماءالنهر، فشرح لي احسن من المعلم كيف ياتي من مكان تكثر فيه الجبال والثلوج والظلام وكيف يعبر بلدانا كثيرة ويجري في مسافات طويلة حتى يصل بلدتنا ويمضي الى بلدان اخرى لينتهي الى البحر الكبير حيث تنتشر سفن كثيرة ومراكب واسماك ودخان .

ومرت فترة صمت ، ظلت هي ساكنة خلالها لا تدري ما تقول .. وبصوت هامس بعد قليل

ـ هو ساحر بالتاكيد ، لا تصدقه أهي تقول : الذي يترك بلده يصبح مثل الحجارة المرمية بوجه السماء ـ اولها واخرها تعود الى الارض ، اسمع كلامي .. تراه ياخذك ويتركك وسط الدخان ويرجع.

وجهه لما يزل مكفهرا عنيدا كما لو كان كل حديثها محض حفيف سري بين الاشجار واخذته ريح هاربة . وعيناه تتطلعان بين حين واخر نحو ساحة البيت المليئة ببرك الامطار كبحور صغيرة كثيرة تعكس لون السماء القاتم .. قال لها مذكرا :

ـ فتحية ! ما نسيت ؟ اذا فتنت عليّ يعلقك الله يوم القيامة من جفونك في نار جهنم . وتعكر صوت فتحية اذ اجابت وهي تلمحه يتهيا فعلا لمغادرة الحجرة وقد زرر سترته على دشداشته :

ـ لا ..

وفي الخارج كانت الريح ما تزال تعبث بسعف النخيل بقوة فتهتز كالامواج الثائرة التي ارادت اغراق سفينة السندباد . قالت له :

ـ قل : مركب ..

وظل هو واقفا لحظات وسط ظلام الحجرة يحدق نحو الارض ويطاطىء رأسه على صدره . فكررت :

ـ قل : مركب .

رمقها بنظرته الحائرة ، وظل على صمته لبرهة ، مسح انفه بجمع يده مرة اخرى ، ثم سأل بصوت هامس مسحوق :

ـ حلوة او ما حلوة ؟

اجابت فتحية وهي تشبك ذراعيها الرفيعتين على صدرها الممسوح النحيف :

ـ حلوة .

خرج صوته متوقعا ولكن لا رغبة فيه للكلام :

ـ مركب ..

فتلامعت اسنانها وعيناها ، واضافت في التو بلهجة غاب منها الخوف :

ـ تاكل حقه ذباب مركب! .

لم تنبسط شفتاه . ولم يبد الزعل على وجهه . بلهجة منطفئةفقط:

ـ قلت حلوة .. انت ايضا ابليسة مثل والدك .

وتلاشت الابتسامة من وجه فتحية كمن شعرت بذنب فقرفصت عند قدميه وجلست على تختة خشبية صغيرة ، جذبته من دشداشته لكنه لم يطاوعها . .بعد لحظات :

ـ اردت اضحاكك ..

.. وبعد لحظات اخرى :

ـ لا تذكر والدنا بسوء ، ترى الله يرميك بنار جهنم . انسيت ما هو مكتوب بالقرآن ؟ ولا تقل لهما ان وقل لهما قولا كريما . صدق الله العظيم .

سكت هو ايضا لبرهة وملامح وجهه الصغير تتصبب في ظلمة الحجرة . وتصاعد صوته فجاة مختلجا بعبرة حاول التغلب عليها :

ـ ابليس ونص : الذي يؤذي .. ابليس ونص .. ابليس ونص .

وارتعش كتفاه فيما هو يدفن راسه بعيدا عنها .ونهضتهي فوضعت ذراعها النحيلة على ظهره فدفعها بعيدا عنه . قالت له بلهجة مخذولة :

ـ امي تقول ، ارواح بني آدم فقط هي الباقية فاما تروح الى الجنة واما الى النار .. وكانت نظرتها مرسلة الىساحة الدار حيث تقف امها امام التنور ترش جوفه الملتهب بقطرات الماء من الابريق في يدها . ونظر فتحي اليها بالم دفين واختلج نور اسود في عينيه فيما انحدرت خصلات شعره على جبهته مرة اخرى . قال لها :

ـ والصياح الذي اطلقه نوري البارحة عندما ظل يضرب به حتى كاد يهلكه ؟ المسكين سوف يموت من الجوع في محبسه ذاك، كانما يريد قتله .

ولوح بيده مشيرا نحو كوخ صغير يغرق في الظلمة فوق سقيفة الدواب .

لا طائل يبدو لمحاولات امها في اخماد سعير التنور ، فالدخان ما زال متصاعدا ينبىء باحتدام جوفه المخيف ، لكنها تواصل رش الماء باصابعها من الابريق بين يديها . ردت فتحية عليه كما لو كانت افكارها قد شردت الى اعماق التنور :

ـ نوري نام عندما سطا الحرامية على بيتنا البارحة ، فكيف لا يفعل ولدي به ما يفعل ؟

ولم يكن فتحي يبدو مهتما لحديثها او مصغيا اليها ، كان هو الاخر يرقب امه ولكن بعينين حذرتين ، ولما حملت طبق الخبز واتجهت به الى الحجرة الاخرى خلف عرائش العنب ، مسح انفه ومشى نحو السلم المحفور في نصف جذع نخلة ممدودة بجذاء معالف الدواب حتى سطح السقيفة المغطاة بالسعف الرطب . تبعته أخته جريا ، وهمست له بصوت مبتهل وهي تشبك ذراعيها على صدرها من البرد :

ـ الى اين تولي وجهك والليل حولك في كل مكان ؟! اسمع كلامي ..

الريح تعصف بهامات النخيل فتهتز قاماتها كالعفاريت . وغمغم ممسكا بجانبي السلم فيما هو يرتفع :

ـ سأذهب معه الى البحور السبعة .. الى انوان واق ، هناك لا يضربون ولا يشتمون ، هناك الاشجار تتحدث ، هناك بنو ادم يصادقون الحيوانات والطيور .

وعندما اصبح على السقيفة هفهفت الريح اذيال دشداشتهالزرقاء القاتمة كشراع مبحر في ليل عاصف اسود . فهتفت محذرة بهمس كتمته بكفيها حول فمها :

ـ لكن الغريب سيرمي بنوري الى البحر . اسمع ..

ولما لم يهتم بها . حذرته ثانية :

ـ مصيبة اذا شافك والدي . اسمع .

فانحنى وقال لها بصوت خفيض :

ـ لن اخرج من البوابة،سأهبط معه على جذع النخلة الىالخرابة.

ولم يكد يخطو خطوتين باتجاه النخلة النابعة من ظلمة العراء المداح في الخارج حتى ارتفعت صيحة عالية مفاجئة من ساحة الدار :

ـ انى ايننولي ، اياك تفتح الباب له او تعطيه لقمة خبز والا فابوك قادم من القهوة الان يذبحك بالمنجل .

كانت والدته وهي عائدة بالفانوس النفطي لتنظيفه قد توقفت الى جانب عمود عريشة العنب ، تمسح زجاجته من السخام بخرقة على كدر الانوار المتبقية في السماء وتنظر اليه بانتظار ان يرجع من هناك. وارتسم ترقب لا حدود له في عيني اختّه التي انسحبت الى الخلف كانما تفسح له الطريق لينزل . وظل فتحي منتصبا فوق السفينة للحظات ووجهه يكفهر باشد قتامة من السماء . قال :

ـ اردت ان اشوفه فقط ، ربما يموت..

والفانوس بين يديها مهجور لا نور فيه يبدد الظلمات .. بلا مبالاة ردت :

ـ تجوع يومين لا يميت ، والا فلن ياكل اذنيه عند تقديمهما له. انزل جاء ابوك .. اشارت اخته له ايضا بايماءة سريعة من يدها النحيلة ان ينزل . مكث في مكانه واقفا كالحائر يقاوم عبث الريح به . وتأججت فتيلة الفانوس بالنار بين يدي والدته، وارتعش اللهب ، فيما زحف ظل اسود الى ساحة البيت منالخارج، ظهر في منتهاه والده عند فتحة الباب كالمارد . رمى يشماغه المعفر على الحبل الممتد بين السقيفة وعريشة العنب ، وتطلع الى السماء قليلا ثم قال بصوت خشن :

ـ صار الهواء (شرجي) راحت الدنيا تزخ ..

وطعنت والدته فتيلة الفانوس فشجب النور . ثم حملته وذهبت

بـه الى الحجرة بعيـدا . فساد الظلام ..

تناول والده المنجل من حزامه ، فتلامـع بيـن يديـه في الليـل كالصاعقة . وصعـد هـو الاخر الى السقيفـة . توجه الى الكـوخ الصغير ، وجعل يفتح بابه المقفل بسلك صدىء غليظ . جاء نباح ضعيف من الداخل .. قال ابـوه لـه :

ـ انزل بسرعـة اجلب لي جمرة من التنور .

ظل فتحي جامدا للحظات . ابتلع ريقه ، غمغم متوسلا :

ـ اتركـه ..

صاح والده بـه :

.. جر فتـحي نفسـه .

اختفت اخته في مكان مـا ، وساحـة البيت اصبحت فجـاة واسعـة كالصحراء ، يكـاد لوحده يضيع في متاهاتها . جرى الـى الحجرة . وهتف بوالدتـه :

ـ يوم ! والدي راح يميته..

حاولت امه تحميل وجهها المتعب ابتسامة تطمين :

ـ لا يموت ، سيبتر اذنيه فقط ويعطيهمـا نه ليأكلهمـا ، هـذا يجعله مثل السبع تخافه الحرامية .

وهزها من ذراعها ، يكبت في صدره رغبة عنيفـة للصياح لتسمعه الدنيـا كلهـا :

ـ سيموت ! انه جرو صغير لا يتحمل ، سيسيح كل دمه .

امه منشغلة بمد البساط قبل جلب صينية العشاء ، ردت عليـه بلا اهتمـام :

ـ جمرة التنور تقطع نزيفه . وهـو لا اول ولا اخر جرو يطعمونه اذنيه . امش لا تكـن مثل البنات محب لغوة .

صرخ بهـا هذه المرة بقوة يكـاد ينفجـر في البكاء :

ـ امشي خلصيه ، الحقيه ، الحقيه ..

فدفعته بعيدا وقد نفد صبرها :

ـ ولي .. لا اكلم والدك ولا ابتلي ببلوى .

وكان صياحها قد اختلط بصيحة رجوليـة اخرى قوية جاءت مـن الخارج ، فاعقبت متلهوجـة :

ـ اركض بسرعة ، والدك يدعوك ،يقلب الدنيـا علينـا اذا تتاخـر عليـه ..

في الخارج ، كان الليـل اسود كالمـاء الآسن . والجمـرة التي حملها من التنور في كاسة ثريد الجرو مضطرمة كالقلب المقهور . اعلى السقيفـة صاح والده بـه :

ـ تعال اعنـي بمسكـه ..

وسلمه والده اليه . قمرر فتحي يده الصغيرة الخشنة علـى راس الجرو الناعم فان كالمترف بالجميل،ولوى رقبته يتمسح به كأنمـا يطلب الدفء . ثم رفع رأسه وتطلع في عيني فتحي بنظـرة دامعـة لا تشبه نظرة الانسان . ونبح بصوت رفيع ناعم مبحوح واخذ يهز ذيله ..

امسك والده باذن الجرو الاولى فجاة واحتزها بمنجله الحـاد فتبتر الدم في الظلام كمـاء ينبوع اسود . ارتخت يدا فتحي الصغيرتان كمـا لو كانتـا على وشك التخلي ، الا ان نظرة والده السريعة اليـه جعلته يواصل الامساك بالجرو حتى اتم احتزاز الاذن الثانية بنصل المنجل القاطع .. نبح الجرو بصوت ناعم اول الامر ثم تخاذل ، وضعف صوته، وبهدوء خفض رأسه وطلم اطرافه الاماميـة حول اذنيه . ثم ان بصوت بدا كانه يخرج من معدته . وعندما قدم له اذنيه لكي يأكلهما نظر الجرو اليهما باستخذاء ، ثم جر نفسه الى داخل الكوخ وكـان الدم مـا يزال ينساب حول اذنيه كانهـار سـودا ء..

هبط والده من السقيفة . وظل فتحي يحدق في ظلمة الليل نحـو كـوخ الجرو نوري . خطا ببطء الى بابه الواطىء . وتوقف امامه، ينظر الى الجرو .. والجرو نوري ينظر اليه بنظرة آدميـة مستفهمة وفـي عينيه بلل وانزوجـة . ثم حنى نوري راسه الى اسفـل واخذ يحـك جذري اذنيه بالارض .. تقدم فتحي اليه واقتعـد امامه فمسد علـى ظهـر الجـرو واقتطـع من اذيـال دشداشته شريطـا من القمـاش لف بـه راس الجـرو .

حمله بيـن ذراعيه ونهض به . سمع صوت اخته يأتية من ساحـة البيت ، خفيضا ، كأنهـا تخشى ايقاظ مخلوقات الصمت . ظلا ينظران الى بعض لحظات ـ هـو فوق السقيفـة كأنه على وشك الذهاب الى السماء ، وهي في الاسفل كأنهـا تطلب المغفرة لذنب لم ترتكبه ..قالت له اخيرا بنبرة مهزومـة :

ـ امي تدعوك الى العشاء .

لم يرد عليها . استدار الى النخلة ،وغاب مع جروه في ظلمـة الخرابة الممتدة وراء الدار .. نادته .. لا احـد يرد على النداء .ارتقت السلم الى السقيفـة بسرعـة ، عقلت في عتمة العراء ونادته مـرة اخرى . ولم يرد عليهـا احد ايضا .. همست بوجه الليـل بهـدوء وحـذر :

ـ امي تقول .. جزيرة الواق واق مسحورة ، عائمة ، كل يـوم تظهـر في مكـان ، فيهـا لا تسكـن غيـر اشباح شفافـة مثل الهواء.. ليس لهـا عيون .. ولا يمكنهـا الكلام ..

وتضيع كلماتهـا في الظلمـة .

موسكـو — برهان الخطيب

مكتبة نطوان

(فرع شارع الامير بشير)

تقـدم للطـلاب

جميع الكتب المدرسية

العربيـة والفرنسيـة